



الشعور ملحة من ملكات الإدراك، و حالة من حالاته، وآلية من آلياته، ورتبة من مراتبه، يتفاوت فيها الناس كما يتفاوتون في قدراتهم الإدراكية كافة الحسية منها والذهنية والنفسية.

وربما مما يضير الشعور وعالمه أن نصفه بأنه (إحساس) طالما أن الأحساس ارتبطت بعالم المدركات الحسية منها على اختلاف معطياتها الفيزيائية؛ ولكن قصر (الإحساس) على عالم المدركات الحسية الفيزيائية، المرئية والمسمعة والمسموعة والمطعومة.... فيه ظلم غير محدود لافق الإحساس المطلقة غير المحدودة. ولاسيما ونحن نعايش يوميا أحاسيسنا الروحية والنفسية الإيجابي منها والسلبي المنير الشفاف منها والمعتم الكتم...

الشعور الإنساني بالمتصورات والمتوقعات، بالأحداث والأشياء، بالمحسوس والمتخيل، بالأشخاص المضيء منهم والكتيم؛ مختلف متفاوت، فهو عند بعض الناس مرهف وحاد إلى درجة أنهم لا يستطيعون استقبال وارداته، ولفظ (واردات) مقتبس عن السادة الصوفية للدلالة على الجرعات الشعورية التي قد تفرض نفسها على الإنسان فتنقله من حال إلى حال وربما من حال إلى مقام. فبينما يستطيع الجزار أن يذبح عشرات الخراف في ساعة واحدة يُغمى على بعض البشر لرؤيا قطرة دم تسيل من إصبع مجرح. والمثل هنا يمكن أن تعممه على كل المدركات التي تفرض نفسها على وجود الإنسان: روحه وعقله وقلبه ونفسه..

لقد أطلق العرب على (الإنسان) الأكثر قدرة على الإدراك وإعادة الصياغة في نوع من الخلق الأدنى جديدا (الشاعر). ولا أحد يستطيع أن يحدد بالضبط ماهية آليات إدراك الشاعر وإن كنا نقف معجبين بوسائل تعبيره سواء كانت كلمات أو أصواتاً أو خطوطاً وألواناً أو صخراً يتحول تحت مطرقه وإذميله إلى شكل من أشكال التعبير عن المرهف الذي لا يكاد يبين. كل المستغلين على إعادة التعبير بما استقبلوا من جماليات الوجود (شاعر)، سواء كان تعبيره عن جماليات الوجود الراضية

أو الساخطة، الإيجابية أو السلبية..

(الشاعر) بالمعنى المتعالي للوصف وحده هو الذي يشعر بالقيح الجميل، وبالجمال القبيح. هو الذي يستطيع أن يقتني المطلق من المحدود، أو أن يتبت المحدود في المطلق. الشاعر هو الذي يرى القوة في الضعف والحياة في الموت ويرى في الوقت نفسه الضعف في القوة والموت في الحياة. الشاعر هو الذي يميز بين قسوة القلب وصلابته وبين لينه وضعفه، وبين شفافية الروح وتعاليها وبين انماقها وترديها. بالروح وحدها كان الإنسان خلقاً آخر فإذا تجرد منها عاد أسفل ما كان..

وحيث يستغرق مشهد من المشاهد بصر إنسان أو صوتٌ من الأصوات سمعه فيشفق قلبه أو نفسه فيغرق فيه طرفاً، حزناً أو فرحاً، ألمًا أو سعادة، سخطاً أو رضاً، ويمر به آخرون وكأن ذباباً طار أمام وجههم فقالوا له بأيديهم (هكذا...); تقع المفارقة الكبرى بين الذين يشعرون والذين لا يشعرون، فيستجيب المشهد الذين يشعرون أي الذين يعقلون أو يحسون أو يبصرون أو يسمعون وحسب تعبير القرآن الكريم يستجيب الأحياء الحقيقون (**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمُؤْمَنُ يَبَثُّهُمُ اللَّهُ**). فشبه حال الذين تتعطل أجهزة الاستقبال لديهم بالموتى، الذين كان موتهم إرادياً قبل أن يكون بيولوجياً. وكما الانتحار المادي جريمة تعاقب عليها الشرائع والأديان، فإن الانتحار المعنوي، الموت الإرادي بتعطيل أدوات الإدراك ووسائل الاستقبال جريمة أبغض وأشنع عند الذين لا يشعرون...

يقودنا هذا إلى مواقفنا المختلفة مما يجري على أهلانا ووطننا في سوريا الحبيبة، في ظل الأحداث التي نعيش. كلام يُضطرنا إليه الاعتزاز لأنفسنا من أولئك الذين (لا يشعرون). الذين لا يشعرون بفداحة الخطب، ولا بضخامة الحدث، ولا بعمق الجراح، ولا بقيمة الوقت. دون أن نطلب عذراً من أولئك الذين تعطلت أو تلبدت لديهم ملكات الشعور، وأغلقت عليهم سبله واستوى في أعينهم (الساقي والخشبة) أو (الدم والماء)، أو نحيب الثكالي وعصف الريح، وبكاء الأطفال من رعب وجوع وبرد ومواء القبط..

في سوريا اليوم رجال يقتلون مع كل قتيل، وينزفون مع كل نازف، وينتهكون مع كل منتهكة، ويهيمون على وجههم في دروب كل الهائمين والهائمات، ويتكلون مع كل ثاكل، ويتيتمون مع كل يتيم، ويجوون مع كل جائع، ويقرصهم البرد مع كل مقرور...

لا بد أن هؤلاء الذين يشعرون (يستعجلون) ويلحون ويكررون وينتقدون. ومرة ثالثة لا نطلب عذراً من المتكئين على الصدور وينضرهم اللهاث ويزعجهم هذا الأنين.

كر القرآن الكريم بنصه الرباني المتعالي في أكثر من عشرين موضعًا من آياته نفي (الشعور) عن أقوام بأعيانهم نسبهم مرات إلى النفاق والغرور، ومرات إلى الكفر والعنو، وثالثة إلى الجهل والبلادة وتعطل الملكات والأحساس. وجاء نفي الشعور في القرآن الكريم بمعنى نفي العلم أو الإحاطة في مثل قوله تعالى عن إخوة يوسف ((وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُتَبَّعِنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)).

ومرة عن أخت موسى الكليم عندما كانت تتبع أثر صندوقه على وجه النيل بعيداً عن أبصار جند فرعون : (فَبَصَرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، وكذا في حديث النملة عن سليمان وجنوده: ((لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سَلِيمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)) قال بعض المفسرين لأن النملة كانت تعلم أنه لا ينبغي لنبي مثل سليمان أن يحطم النمل وواديه عن قصد وعلم ودرأة وشعور. فكيف بمن يحطم أمماً من البشر وشعوبًا وبلدانًا!.

ثم في كثير من آياته حذرنا القرآن الكريم أن ينزل بنا أمر الله عاماً أو خاصاً بفتحة ونحن (لا نشعر) و(لا نحس) بل نخوضون لعب ويظن البعض أنه يحسن صنعاً. في أكثر من موضع يحذرهم القرآن الكريم العذاب والبعث والساعة ((أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)).

ولعل السياق القرآني الأهم فيما نحن فيه من نفي الشعور عن طائفة من الناس فهي في حديث القرآن الكريم عن (المخادعين) يظلون في أنفسهم تفوقاً في خداع الناس واستصغارهم يقول لهم القرآن الكريم ((وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)), وعن المفسدين يتهمون غيرهم بالفساد يقول لهم القرآن الكريم (((أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)). وعن السفهاء يرموهم وصف السفه على غيرهم يقول القرآن الكريم ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ))...

مركز الشرق العربي

المصادر: